الفصل العاشر

مستقبل العربية وآدابها

عرف الناس خصائص الاستعمار الصليبى الذى أغار على أرضهم خلال الأعصار الأخيرة .

كان غرضه الأهم الأوضح أن يمحو الشخصية الدينية لأمتنا ، وأن يقطع حبالها على مر الأيام باللغة العربية ، فإذا محا الإسلام والعروبة فى كيانٍ مَّا قَبِلَهُ بَعْدُ تابعًا يكدح له وحده .. !.

والمرء بعد فقدانه الإيمان واللسان ، أو بعد فقدانه أصوله الروحية واللغوية ، يمكن حسبانه مؤقتًا فى عداد المفقودين ، بيد أن الاستعمار لا ينتهى به إلى هذه النتيجة ثم يتوقَّف ..

كلا ، إنه يعدُّه سَمَادًا لجيل آخر ؛ له عقيدة أخرى ؛ ورطانة أخرى ، كما تتحول الفضلات الحيوانية إلى تربة جديدة لكيان آخر مقطوع الصلات بالماضى القريب والبعيد معًا ..

والسياسة التى اختطّها هذا الاستعمار المكَّار تبعث على العجب ، فالانجليزى «سبنكس باشا» يعيَّن قائدا للجيش المصرى ! والإنجليزى « رسل باشا » يقود شرطة القاهرة ! والإنجليزى «دنلوب» يقود سياسة التعليم ... !.

ولا بأس فى طريق القضاء على اللغة العربية أن يستعان بأوروبيين يعيَّنون فى مؤسساتنا الثقافية ؛ مثل المستشرق الألمانى «وهلم سبيتا» الذى وُظِّف بدار الكتب المصرية ، وكان أول من دعا إلى نبذ اللغة العربية ، وألّف كتابًا عن قواعد اللغة العامية فى مصر !.

وتبع هذا الموظف لمحاربة العربية موظف ألمانى آخر هو «كارل فولرس» الذى عيِّن أمينًا للمكتبة الخديوية بالقاهرة ..!.

وجاء بعدهما إنكليزى موغل فى التعصب ؛ كان يشرف على مدرسة الهندسة العليا ـ كلية الهندسة الآن ـ اسمه «وليم ولكوكس» الذى منحته إنجلترا فيما بعد لقب «سير».

وتبنّى أفكار الجميع عددٌ من اللبنانيين والمصريين الحاقدين على الإسلام ، وكانت صيحاتهم لهدم المواريث الأولى لا ينقطع صداها ، وتدبّر ما قاله «سلامة موسى» فى كتابه اليوم والغد : (الرابطة الشرقية سخافة ، والرابطة الدينية وقاحة ، والرابطة الحقيقية هى رابطتنا بأوروبا ..) !.

والذوبان المنشود فى أوروبا يعنى بداهة اطراح الإسلام والعربية ، ووجود نابتة مُهجَّنة تستخفّ بتكاليف الإيمان وأواصر الفصحى ، وقد اتسعت هذه الدائرة ، ووجد الداخلون فيها كل تشجيع مادى وأدبى ، وأزيحت من أمامها العوائق ، بل كثرت من ورائها الدوافع ؛ حتى كادت تستولى على مقاليد الأمة فى كل ميدان ، لولا أن الصحوة الإسلامية التى تتجدَّد بها أمتنا على امتداد القرون تيقظت للخطر الداهم ، وردمت منابعه ما استطاعت .

ولا تزال المعركة سجالاً بين الإيمان والإلحاد ، وبين العامية والفصحى ، مع ملاحظة أن ذلك الصراع أخذ عنوانات شتى ! بدأ بين التقليد والتجديد ، أو الرجعية والتقدم ، أو الأصالة والمعاصرة ، ثم رأى الماكرون بالإسلام أن يتركوا هذه الموازنة ليكون العنوان الأوحد القومية ، أو الاشتراكية ، أو العلمانية ..

ولعل السر أن المسلم مهما بلغ عصيانه يعود إلى دينه فجأة ! إذا خُيِّر بينه وبين غيره من مذاهب ، ومن هنا حلّت النزعة الواحدة الجديدة محل الموازنات المقلقة ؛ على رغم أن هذه النزعة لا تخاصم الدين !!.

والحق أن الإسلام لحقت به خسائر جمة ؛ عندما ارتفعت راية القومية عربية كانت أو غير عربية ، وعندما ارتفعت راية الاشتراكية شيوعية أو غير شيوعية ، ثم جاءت العلمانية أخيرًا فكانت ثالثة الأثافى ...

فى ظلها هان الإيمان ، وسقطت قيم خطيرة ، كما أن فى ظلها هبط الأدب العربى ، وانتصرت الكلمات الأعجمية ، ولوحظ فى المسرح والإذاعة والجامعة والصحف ؛ أن الأمة تنحدر إلى هاوية ليس لها قرار ..

وحديثنا الآن عن الأدب العربى واللغة العربية بعامة ..

يرى الأستاذ الكبير أحمد موسى سالم أن الضعف العام بدأ من عصر مبكر ، وأن فساد الحكم من ورائه فيقول : «لكن هذه اللغة مع بداية استرخاء الحكام العرب فى القصور ، ومع غيبة المجاهدين المرابطين فى الثغور ، ومع ما أصاب عامة العرب من زوّار المدن أو المقيمين بأطرافها ، من فتنة بالمعروض الشهىّ من المتاع ، أو المبذول الطيّع من الغواية .. بدأت تطرأ على تراكيب اللغة وعلى وظيفتها وأهدافها تغيرات تعكس ما وقع للناطقين بها ؛ بعد أن فكّوا أحزمة التشدّد وبعد أن أطافوا طويلاً باللّمم ؛ وبعد أن ساقهم اللمم إلى ألوان من الذنوب ما عرفها آباؤهم ، فإذا هم قعود وعلى ألسنتهم كلمات جديدة معربة ـ أو غير معربة ـ فى مجالس الغناء واللهو والخمر والشذوذ والانحلال .

بهذا الاسترخاء ، والإقبال على المتع تراجعت القدوة التى كان الأعاجم يجدونها فى العرب ، ولم يعد العرب قادرين على استهواء غيرهم لينصر الدين واللغة» ! ! .

ومع أن الحكومات العربية أساءت إلى اللغة ولم تحسن نصرتها ، وقعدت بالأدب العالى فلم تمنح رجاله ما يستحقون من صدارة ؛ إلا أنى أحسب أن المعاهد المتخصصة فى الدراسات اللغوية والبلاغية تحمل وزرًا أشدّ فى هذا المضمار .. وأن جمودها ؛ وفتورها ؛ وقصورها من أهم الأسباب فيما عرا اللغة العربية فى هذا العصر من ضعف وانزواء ..

وإنى لأحسّ غضبًا شديدًا عندما أرى علماء دين لا يحسنون ضبط الإعراب ، أو عندما أرى رجال سياسة يخبطون خبط عشواء ؛ ويقعون دون حياء فى شر أنواع اللحن ..

ماذا فعلت المعاهد العتيقة والمجامع الجديدة لخدمة العربية فى عصر نرى فيه الإنجليزية مثلاً تبتدع عشرات الأساليب للانتشار والسيطرة ؟

ذلك بحث ينبغى ـ دون حرج ـ أن نخوضه ، لنعرف مدى تقصيرنا فى لغة الوحى ، ولنستقبل الأيام القادمة بعمل نافع وجهد مثمر ...

لقد تعلمت الإسلام والعربية فى الأزهر الشريف ، قضيت شرخ الشباب فى مراحل الدراسة المختلفة ، وعندما أخطّ هذه السطور أمزج بين العلم والأدب والمجتمع ، وأضمّ أشتاتًا من الذكريات التى استنبطنا فيها القواعد من الشواهد ! ! .

نعم إن الأسلوب الذى تعلمنا به اللغة العربية يقوم على شرح القاعدة وسوق الدليل عليها من الكتاب أو السنة أو التراث الجاهلى والمخضرم وأوائل التاريخ الإسلامى ...

وأشعر صادقًا بأن الشواهد التي قابلناها ؛ أو الأدلة التى عايناها ؛ كانت زادًا فكريًا وعاطفيًا عامرًا بأنواع المشاعر والأمزجة وصور الحسّ والأداء العالى ...

وأريد من القارئ أن يسترجع معى جملة من الأمثلة ليس بينها رابط ! وأن يعيش فى جوها كما عشنا ، وأن يستفيد منها معلومات نحوية لا بأس بها ولا تخضع فى سياقها لترتيب معين ! ! .

يقول الشاعر :

وفِتْيانِ صدقٍ لستُ مُطْلِعَ بعضهم ... على سِرّ بعض غيرَ أنى جِماعُها

ويقول آخر :

وليلٍ كموج البحر أَرْخَى سُدُولَه ... علىَّ بأنواع الهموم ليَبْتِلى !

البيت الأول يصف أمانة الكلمة واحترام الأسرار ! والبيت الثانى يصف ليل المهموم ! .

وحرف الواو فى أولها يسمى « واو رُبَّ » يُجَرّ الاسم بعده وجوبًا ، ويعرب جملة إسمية ، مع خبر المبتدأ ...

ويقول الشاعر :

لا يبعدَنْ قومى الذين هُمُ ... سُمُّ العِداة وآفةُ الجُزْرِ

النازلين بكل مُعْتَرَكٍ ... والطيِّبون مَعاقِدَ الأُزْرِ

يصف الرجل قومه بالشجاعة التى تخيف منهم عدوهم ، وبالكرم الذى يستهلك

الأموال ، وبالجراءة التى تُقْحِمُهم فى كل معركة ؛ وبالعفاف الذى يعصمهم من ارتكاب الفواحش ..

والشاهد هنا فى «النازلين» التى نصبت على الاختصاص ، ثم عُطِف عليها نعتٌ مرفوع .. وهذا مأنوس فى الأداء العربىّ ؛ وإن جهله الجاهلون ؛ وحسبوا فى الكلام لحنًا .. !!.

وتقول عاتكة بنت زيد ـ لما مات زوجها عبد الله بن أبى بكر .. وقد أصيب بسهم قاتل فى حصار الطائف :

آليتُ لا تنفكُّ عينى حزينةً ... عليك ، ولا ينفكُّ جلْدى أغبرا !!
فللّه عينا مَنْ رأى مثلَه فتىً ... أكرَّ وأَحْمىَ فى الهياج ؛ وأصبرا !
إذا أُشْرِعَتْ فيه الأسِنَّةُ خاضها ... إلى الموت ، حتى يترك الموت أحمرا !

وعاتكة تبلغ القمة فى وصف زوجها الراحل وشجاعته وجلادته ، يقول عنها شارح الحماسة : كانت صحابية شاعرة فصيحة لها جمال وكمال ، وتمامٌ فى عقلها ومنظرها ، وجزالة فى رأيها ، تزوجت بعبد الله بن أبى بكر الصديق ، فلما مات عنها كما حَكَيْنا ، تزوجها عمر بن الخطاب ، فلما قتل تزوجها الزبير بن العوام ، فلما قتل بوادى السباع تزوجها الحسين بن علىّ ؛ فلما قتل بكربلاء كانت أول من رفع خدّه عن التراب ثم تأيّمت بعده ..

ومن الطرائف أن عبد الله بن عمر كان يقول ـ فى شأنها ـ : من أراد الشهادة فى سبيل الله فليتزوج عاتكة !!.

وأحسب أن هذه السيدة لو كانت فى عصرنا لتشاءم منها الناس !.

إن الأولين كانوا على فطرة سليمة ، وتجاوُب شريف مع الطبيعة البشرية ، أما نحن فتقوم تقاليدنا على المُراءاة والاستهانة بالمرأة والرغبة فى تنقُّصها .. !!.

وليست عاتكة أول من حلَف ألا ينسى ميته ! لقد سبقها دريد بن الصِّمّة عندما قال :

فوالله لا أنسى قتيلاً رُزِئتُهُ ... بجانب قُوسى ما مشيْتُ على الأرض !

ثم تراجع الرجل واعترف بأن الحياة ليست كذلك ، فقال معتذرًا :

على أنها تُشْفَى الكُلوم وإنما نُوَكَّل بالأدنى ؛ وإنْ جَلَّ ما يمضى !

وقد تَرِدُ كلمة «ذو» بمعنى الذى ، وهى لغة طيِّئ ، وفى ذلك يقول الشاعر متحدثًا عن عفته ؛ إذا ألجأته الظروف ؛ فكان ضيفًا على بعض الناس :

ولستُ بهاجٍ فى القرى أهل منزل على زادهم أبكى ؛ وأُبكى البواكيا
فإمّا كرامٌ مُوسِرُون أَتَيْتُهم فحَسْبى من «ذو» عندهم ما كَفَانِيا
وإما كرام مُفْسِرون عَذَرْتُهم وإمّا لئامٌ فادّكَرْتُ حَيَائيا

ومن أدلة العطف على اسم إن بالرفع قبل تمام خبرها ، قول الشاعر عن نفسه وحصانه ، واسم الحصان قيَّار ! ! .

فَمَنْ يَكُ أَمْسَى بالمدينة رَحْلُهُ فإنى «وقَيَّارٌ» بها لَغريبُ

وبعض الجهلة يحسب ذلك خطأ ، ويتهجّم على القرآن الكريم فى قوله تعالى : «إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »[1]. إن هذا ميدان لو مضيتُ فيه لم أنته منه ، وإنما أَبَحْتُ لنفسى ؛ وارتضيتُ للقارئ ما فعلت ؛ لأنى أريد شرح الطريقة التى تعلمنا بها العربية من ستين سنة ...

كل قاعدة يرى المؤلف نفسه مطالبًا بالاستدلال عليها من التراث الأدبى فى اللغة ! ! .

والسؤال : هل سيظل الاستدلال على القواعد مطلوبًا إلى قيام الساعة ؟ إن اللغة تدرس كى نحسن الكلام فى الحاضر والمستقبل ، ويبدو أن أساتذتنا لم يلتفتوا لذلك كما ينبغى .. وخلت دروس النحو والصرف والبلاغة إجمالاً من التطبيقات والأمثلة التى لابد من أن تكون كثيرة وفيرة ، فكان ذلك طعنة نافذة إلى اللغة وتداوُلها ...

ثم جاءت مدرسة الجارم ومن بعده ؛ فعالجت هذا الموضوع علاجًا جيدًا ، وكان لها جهد مقدور فى ترقية الأداء العربى وتقويته .. ولكن هذه المدرسة اضمحلّت مع ضغط الاستعمار الثقافى ، وانتصار التفاهات فى شتى الساحات ..

لقد لاحظت أن قاعدتى النحت والاشتقاق كادتا تكونان معطلتين فى مواجهة

(١) سورة المائدة: ٦٩.

الحضارة الحديثة الزاحفة علينا ماديًا وأدبيًا ، كما لاحظت أن هناك خلطًا قبيحًا بين تعليم اللغة العربية للعرب وللأعاجم مسلمين أوغير مسلمين ...

وهناك فوضى فى تعليم جموع التكسير ، وضبط المصادر القياسية والسماعية ، واشتقاق الأفعال بين المضارع والماضى ...

إن عناية الإنكليز بالغة بضبط لغتهم ونشرها ، وما فى لغتهم إلا ما يكسب المهارة فى بعض العلوم الحديثة ، ولا أدرى ماذا أعمى العرب عن عشرات الدروب ينشرون فيها لغة القرآن ، ويبصِّرون الدنيا بمعالم الوحى الأعلى .

إن تعلم العربية فريضة على أمة رسالتها عالمية ، وتفريطها فى ذلك خيانة فاضحة ! ويوجد فى هذه الأيام المهزولة المهتزة قادة للعرب إذا تكلموا كانوا أطفالاً لا رجالاً ، وكانوا نماذج للهزل لا للجدّ ! !.

إننا نقترف خيانة فاجرة عندما نترك العربية تموت بين أيدينا ، وعندما نعد تعلمها حرفة لبعض الشيوخ المغموصين ، هذا كفر أو دونه الكفر ! !.

تدهور اللغة العربية

لاحظت أن اللغة العربية تسير من تسعين سنة فى منحدر ، فالمفردات الدخيلة تطارد الكلمات الفصحى فى كل ميدان .

عندما أكون فى دار الإذاعة أسمع «الاستوديو» و «تيست» و «ستاندباى» وعندما أرى مباريات الكرة أسمع «الجول» و «الكورنر» ، وعندما أكون فى البيت أسمع «بوتيك» و «سوبر ماركت» أما فى عالم الفنادق فاللغة العربية مزدراة ، كذلك فى عالم الدواء والصيدليات .

ومن قبل هذا البلاء المتنامى كان قد صدر حكم بطرد العربية من ميادين الطب والهندسة وسائر المعاهد العلمية .. كما أن ألفاظ الحضارة تفد كل يوم وتزيد حاملة طابعها الأجنبى ؛ لا يكاد ينفك عنها ، وفارضة الوحشة على لغتنا .

والغريب أن علماء الأزهر آثروا كلمات «ماجستير» و «دكتوراه» على غيرها ، وما أبدع أن يقال : دكتور فى الفقه ، ودكتور فى النحو ... !.

وظاهر أن الغزو الثقافى يصادف نصرًا بعد نصر ، وأن الانحلال القومىّ يلفّ العامة والخاصة فى ردائه المهين ..

أين حماة اللغة ؟ أين المدافعون عن لساننا الروحى والشرعى والمادى والأدبى ؟

لقد بدأت مطاردة الفصحى مع الاحتلال العسكرى ، وبقيت بعد رحيل الجيوش الغازية ؛ مع ضراوة الاستعمار الثقافى ...

وظاهر أن خطط الدفاع فاشلة أو معدومة ! إننا نردِّد الآن بصدق ما قاله حافظ إبراهيم من تسعين سنة يستنهض الهمم لذَوْد الفناء عن لغتنا ، فإن الاستعانة الصادرة من الشاعر الباكى ذهبت مع الريح ...

نحن ما تقدمنا خطوة فى طريق شرفنا ؛ وصون تراثنا ، بل تأخرنا خطوات ، وحاصرتنا الرطانات الأعجمية والكلمات العامية ...

يقول حافظ إبراهيم سنة ١٩٠٣ تحت عنوان «اللغة العربية تنْعَى حظَّها بين أهلها» :

رَمَوْنى بعُقْم فى الشباب وليتنى ... عقمتُ فلم أجزع لقول عداتى
وَلَدتُ ولما لم أجد لعرائسى ... رجالاً وأكْفاء وأَدْتُ بناتى
وَسِعتُ كتاب الله لفظا وغايةً ... وما ضِقت عن آىٍ به وعِظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلةٍ ... وتنسيق أسماء لمخترعات ؟
فيا وَيْحَكم أَبْلَى وتَبْلَى محاسنى ... ومنكم وإن عزّ الدواء أُساتى
أرى لرجال الغرب عِزًّا ومَنْعةً ... وكم عَزّ أقوام بعِزّ لغات
أتَوْا أهلهم بالمعجزات تفنُّنًا ... فيا ليتكم تأتون بالكلمات !
أرى كلَّ يوم بالجرائد مَزْلَقًا ... من القبر يدنينى بغير أناة
أيهجُرنى قومى ـ عفا الله عنهمُ ـ ... إلى لغة لم تتصل برُواة ؟
سَرَتْ لوثة الإفرنج فيها كما سرَى ... لُعاب الأفاعى فى مَسِيل فُرات
فجاءت كثوب ضمّ سبعين رقعة ... مُشكَّلة الألوان مختلفات
إلى معشر الكتاب والجمع حافل ... بسطتُ رجائى بعد بَسْط شكاتى
فإما حياة تبعث الميْت فى البِلَى ... وتُنبت فى تلك الرُّموس رُفاتى

وإما ممات لا قيامة بعده ممات لَعمْرى لم يُقَس بممات

ليتنا نعى ونستحى ...

لقد تقرر لدى المعنيِّين بالتعريب أن النحت والاشتقاق أهم الوسائل لما يريدون ، وعندما راقبت الثمار العملية لم أستقر على حال ...

فى مصر اختيرت كلمة المسرة «للتليفون» ، وفى الشام والجزيرة شاعت كلمة الهاتف ، ولا تزال كلمة التليفون أشيع !!.

واختيرت كلمة كابح للفرملة ، ومِقْوَد أو زِمَام للديركسيون ، ومع ذلك فإن الكلمات الأجنبية لا تزال تجرى على الألسنة ! وتكاد كلمة مِذياع تموت ليبقى اسم الراديو هو الأشيع ، وقد نُحتتْ كلمة تلفاز عن وزن سِروال وقِسطاس ، وحرَصنا على نشرها ، ولكن مستقبل الكلمة لم يستقر بعد !.

والعلاج الحاسم أن تضع لجان متخصصة الكلمات المختارة بدل الأجنبية ، ثم تقوم لجان أخرى بفرض رقابة حكومية وشعبية على ترويجها ، وإشعار الجماهير أن ترك العربية الفصحى فى مَهبّ الريح كبيرة من الكبائر وأن الأمة التى تفقد لغتها كالفتاة التى تفقد عرضها ، وأن المسلمين ـ من بين أمم الأرض خاصة ـ مكلَّفون بالدفاع عن العربية ضد كل هجوم ؛ لأن الهجوم فى مراحله الأخيرة يتجه إلى وحى الله ..

وقد حاول بعض الموارنة أن يخدموا العربية بطريقة مريبة ؛ فألّفوا قاموسًا حرَصوا على تجريده من كل أثارة للكتاب والسنة ؛ ثم ألحقوا به فهرسًا للأعلام ثلاثة أرباعه من أعلام أوروبا ومعالمها ! وتلك محاولة متعمَّدة لمحو شخصيتنا ، خطوة خطوة ..

ويزعم نفر من القاصرين أن ترجمة الطب والهندسة وغيرهما صعبة ؛ أو متعسِّرة ، وهذا ستر للعجز العلمى والخلقى ..

وقد قرأت كتابًا عن الحمَّيات بالعربية للدكتور إبراهيم حسن ، وكتابًا عن الأمراض الجلدية والتناسلية للدكتور حبيب موسى ، وهما فى عصرهما من أعلام الطب ، وما عجزت لغتنا عن استيعاب المعانى كلها ..

إننى أحتقر أى امرئ يطعن العربية دون غيرها من اللغات الأوروبية أو الآسيوية ، وهى لغات انتقل إليها الطب ولم تنتقل هى إلى الطب ..

إن التأثر الخسيس بالاستعمار الثقافى من وراء التدريس بالروسية ، ولو انتصرت إسرائيل فسيكون التدريس بالعبرية ..

إن الهَمَج أتباع لكل ناعق ، وأذيال لكل غالب ، والآن نرى فلاحين من أعماق القرى ، أو أعرابًا من سكان الصحراء يرسلون إلى الإذاعات فى لندن وواشنطن يطلبون سماع أغانى أجنبية ، ويُهدونها إلى آبائهم أو أمهاتهم الجالسين على الأكوام أو تحت الخيام !!.

أمَا ينتهى هذا الهزل ، وتستخفى تلك الوضاعة فى العلوم والفنون على سواء ؟ أما نتعصب للغتنا ؟!.

إن الحضارات تهتم بالفنون والآداب كما تهتم بالعلوم والإنتاج ! ويظهر أن الإنسانية ترتبط بالمشاعر العاطفية ؛ والنواحى الجمالية ؛ ودواعى المرح والاستجمام مثلما ترتبط بالضرورات الاقتصادية ، والمباحث العقلية والكونية ...

وما نراه فى العالم الآن يصدِّق هذه الفكرة ، فالناس من وراء العالم الإسلامى لهم فنون جادّة وهازلة ، ولهم آداب مستقيمة ومائلة ، وتلك طبيعة البشر !.

وما نخافه هو أن يغل الجانب الطائش ، ويكتسح ما حوله ..

وقد راقبت الفنون والآداب فى عالمنا العربى فوجدت أن عددًا من الفنانين والكتاب بلغ من الإسفاف حدًا يُخشَى منه على الأخلاق والقيم الكريمة ؛ وإذا لم يُضْرب على أيديهم فلن تفلح أمتنا أبدًا .. الكلمات المحقورة تجرى على ألسنتهم والحركات الهابطة ؛ وفقدان الهدف العالى ، كأن المهم إضْحاك الرعاع ؛ وابتزاز أموالهم ...

وقد ألّف الأوروبيون روايات فى موضوعات شتى ، وأنشؤوا أنواعًا من الفنون تليق أو تتجاوب مع بيئتهم ، وحاول رجال منا تقليدهم فى الأدب التمثيلى ، واستطاع شوقى تأليف روايات أدبية وسياسية لها قيمة كبيرة ، بيد أن الحرب المعلنة على الأدب الرفيع أجهزت على المشروع كله ، فانتهى بنهاية شوقى ...

وأتساءل الآن : ألا يوجد لدينا أدب يوجه إلى الخير والرشد ؟ ألا نستطيع عرض الأمثلة الرفيعة فى سياقات رائقة جميلة ، من القصيدة أو المقالة أو الرواية ؛ طالت أم قصرت ..؟

فى التراث القديم ذخائر أهيل عليها التراب .. وقد ساءنى أن أهْوَن ما فى التراث يبرز ، وأنْفَس ما فيه يظل كنزا مخفيا ، مع إمكان الانتفاع به ، وشدة الحاجة إليه .. !

يرى الأستاذ أحمد موسى سالم أن الأدب العربى انحرف من عهود مبكرة ، وأن من أعلام انحرافه أبا نواس ، وابن الرومى وغيرهما الذين لا تنميهم إلى العروبة أصول نقية ..

ومع تقديرى الكبير لأستاذنا فقد خالفته فى هذا الحكم ، إذ أن عربا أفحاحا هبطوا فى آدابهم إلى درك بعيد ، وهل كان امرؤ القيس نموذجا شريفا فى شعره العابث ؟ ..

الجريمة فى نظرى إبراز امرئ القيس ابن الملك ، وإخفاء عروة بن الورد الصعلوك ، وأمثاله من الشعراء المقلّين الذين قفزوا إلى الأوج فى يقظاتهم الأخلاقية ، ومعاناتهم الإنسانية الجديرة بالاحترام ..

وقد قرأت حماسة أبى تمام ، وأمالى القالى ، وتصفحت العقد الفريد .. ومررت بروائع من المشاعر والحِكم ، والمدح والقدح ، والوصف الدقيق ، والغزل العفيف ، وملاحقة مواقف الإنسان مع الحياة خفضًا ورفعًا ؛ ونعمة وبؤسًا وضحكًا وبكاء ، فوجدت فى آدابنا القديمة ما يجب أن يرى نور الحياة وينتفع به المعاصرون ، أكثر وأجدى مما يُقرأ الآن من آداب الإنكليز والفرنسيين والروس ... ! !.

العربية هى لسان الوحى ، وهى اللغة الرسمية للإسلام ، وفرض على العرب أن ينشروها ...

والحق أن عالمية الرسالة تقتضى عالمية اللغة ، ومن هنا أقبل المسلمون الأوائل على نشر العربية مع الإسلام ، وبذلوا فى ذلك جهدًا مشكورًا .

كما أن الأمم الأخرى نشطت إلى إجادة العربية والمهارة فى كتابتها والنطق بها ،

ولما كانت العروبة تعنى اللسان لا الدم ؛ فقد أضحى كل متكلم بالعربية عربيًّا ؛ دينًا وجنسًا ! وضارع العرب الأقحاح فى كل شىء ، بل سبقهم بتفوقه العلمى فأمَّهم فى المساجد ، ودرس لهم علوم الكتاب والسنة ، وبدا ـ فى أيام التابعين ومن بعدهم ـ أن الأعاجم سادوا العرب فى تلك الساحات المفتوحة ..

بل إن الجماهير ما وجدت أى حرج فى إقرار هذا الوضع ، فإن التعصب للعرق لا يعرفه الأتقياء ، وسمة الإنسانية العامة الشائعة فى الكتاب والسنة جعلت الفاتحين عسكريًّا يذوبون فى البلاد المفتوحة ، وصار الكل عربًا مسلمين ، لا فرق بين أصيل ودخيل ..

لكن بعض القاصرين أو المقصرين لما استوعروا طريق الكدح والبذل ؛ أرادوا ستر تخلُّفهم بإحياء النزعات العنصرية ، والنعرات القبلية ، فنشأت الشعوبية والقومية العربية ! !.

ولست بصدد تحقيق أيتهما أنتجت الأخرى ، فالمهم أن هذه النزعات على وضاعتها لم تلق فى الجو الإسلامى النظيف ما يعينها على البقاء والاستفحال ..

ومضت الجماهير تخدم الإسلام بإخلاص وحماسة ؛ شاعرة بأن الصياحين بأنسابهم مقصرون يحاولون ستر خسيستهم ..

وجدير بالعرب ـ الذين يذكرون أنهم أبناء الفاتحين الأوائل ـ أن يثابروا على تعليم لسانهم وأدبهم العتيق الطهور ، وهم واجدون ثروة طائلة منه فى تراثهم المهمل ، ويستطيعون اختيار نماذج صالحة منه على أساس من استنارتهم بفطرة الإسلام ، وإنسانيته الراقية ..

وكذلك جدير بغير العرب أن يضبطوا لغة الوحى ، ويتقربوا إلى الله بتنمية أساليبها فى الكتابة والخطابة ، وما تُنْكَر جهودهم فى هذا المجال ...

وأنا عندما أنظر إلى أبى نواس ، والأبيات التى نقمها منه الأستاذ أحمد موسى ؛ أستنكرها من زاوية معينة ، والأبيات هى :

عاج الشقىُّ إلى رسم يسائله ... وعجت أسأل عن خمارة البلد ! !
يبكى على طلل الماضين من أسدٍ ... لادرَّ درُّك،قل لى:مَنْ بنو أسد؟

ومَنْ تميمٌ ؟ ومن عكل ؟ ومَنْ يَمَنٌ ؟ ليس الأعاريب عند الله من أحد !

إن أبا نواس فى هذا المجون الذى عرف به ؛ ليس أسوأ أدبًا من امرئ القيس الذى يقول :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضعٍ فألهيتها عن ذى تمائم مُحْوِل !!

وتحقير العرب معصية ، وكرههم فسوق ، ولا يساويه فى الضَّعَة والرِّدّة إلا انتماء العرب لغير الإسلام ، واعتزازهم بعروقهم الجاهلية واستهانتهم بالإسلام ...

ويوجد الآن قوميون عرب يملؤون أشداقهم فخرًا بالعروبة ويسبقون أبا نواس إلى الخمارات ، والقرامطة إلى جَحْد الشعائر الدينية .

إن الآداب العربية التى نريد إحياءها هى نماذج من صميم التراث العربى الأصيل ، تمتاز أولاً بأنها هتاف فِطَرٍ صافية عالية ، والإسلام دين الفطرة ، وتمتاز ثانيًا بأنها بناء بلاغىّ محكم يعين على بقاء اللغة سليمة الأداء ؛ رفيعة المستوى ، وأخيرًا فهى تربط عصرنا بأصوله وتجعل حاضرنا امتدادًا له ! وتعيننا على الفهم السوىّ للكتاب والسنة ...

الأدب الرفيع موصول بالإسلام

الأدب الإنسانى العالى هو صورة جميلة لفطرة الله فى الأنفس والآفاق ، يتملّاها الإنسان فيشعر بالتجاوب والرضا ، وقد عُرف هذا الأدب فى شتى الأعصار والأمصار ، وكان موضع التقدير أيًّا كانت نسبته ...

قرأت نماذج منه فى الأدب الجاهلى عندنا ، وشعرت بأنها من أنفَس مواريث الإنسانية عامة ، كما عرفت نماذج من الآداب الأجنبية المترجمة جديرة بالاحترام .

ولعل ذلك كان قبل انتشار الوجودية والشيوعية وفنون الإلحاد والانحلال التى شوهت الفطرة ، وافترت أكاذيب كثيرة على الإنسان وأشواقه وظاهرت جماح الشهوات ؛ واعتذرت عنه ؛ ثم جعلت الأمانىّ المحرمة أهدافًا مقبولة !!.

وأخطر هذه الآداب المقالات التى كتبها ملاحدة سافرون ، أو ملاحدة مقنّعون ؛

يخفون الصليب أو التلمود فى ضمائرهم ، ويجعلون من العلمانية شعارهم المكشوف ، ثم يكتب أحدهم عن حياته فلا يتحرج من ذكر ليلة نَجِسة قضاها مع بغيّ فى صدر شبابه !.

أو يمجد الخيانة الوطنية كما فعل لويس عوض عندما جعل يعقوب حنا بطلاً قوميًّا ، وهو يعلم أنه جنّد فرقة من أتباعه لمظاهرة فرنسا وهى تحتل مصر ، وتدخل بخيلها الأزهر... !!.

ويوجد الآن حشد كبير من أدباء علمانيين يهاجمون الإسلام بخبث شديد ؛ فى مقالات لهاليونة الأفعى ، وسمها الناقع ..

وأنا أحتفى بالأدب الإنسانى المجرد ! الأدب الذى يصف بصدق مشاعرنا وما نعانى فى هذه الحياة ...

وعندى أن هذا الأدب يمُتّ بصلة إلى الإسلام ، لأن الإسلام دين الفطرة ، فما اقترب منها من قول أو عمل يقترب منه ، وما تنقصه إلا تكملة يسيرة ليكون أدبًا دينيًّا ..

من هذا المنطلق وضعتُ عناوين من السُّنّة لشعر أو نثر ؛ قد يكون بعضه جاهليًّا ؛ لأنى وجدت الإسلام يقرر هذا الخُلق ، أو يُحضّ على هذا الأدب .

في السنة مثلاً يقول الرسول الكريم: «المجالس بالأمانات»[1]، ويقول: «إذا حدّث رجل رجلاً بحديث، ثم التفت فهو أمانة»[2] !! وقد تكون صادقاً في النقل ، أو فى وصف امرئ بما فيه ! لكن عواقب ذلك خطيرة فى الهدم وإشاعة الأضغان .

ألا يعجبك بعد هذا قول الشاعر فى أمانة الكلمة وحفظ الأسرار واستبقاء الوُدّ :

وفتيانِ صِدقٍ لستُ مُطْلعَ بعضهم على سر بعض غير أنى جِماعها

---

(١) رواه الديلمي.

(٢) رواه أحمد والترمذي.

لكل امرئ شِعْبٌ من القلب فارغٌ وموضعُ نجوى لا يُرام اطِّلاعُها
يظَلّون شتّى فى البلاد وسرُّهم إلى صخرة أعيا الرجالَ انصداعُها

وقول الآخر :

وأنت امرؤ إمَّا ائتمنتُك خاليا فَخُنتَ ؛ وإمَّا قلتَ قولا بلا علم
فأنت من الأمر الذى كان بيننا بمنـزلـة بين الخيـانـة والإثم

والفقر مرض يصيب بالشلل هما قوية ، ويعجز المرء عن حقوق يتمنى أداءها ..

ومن ثم استعاذ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الكفر والفقر ، ألا تتجاوب بعد ذلك مع عروة بن الورد «الجاهلى» وهو يقول فى الحضّ على الارتحال والكدح :

دعينى أُطوِّفْ فى البلاد لعلّنى أُفيد غِنىً فيه لذى الحق مَحْمِل
أليس عظيمًا أن تُلمّ مُلِمّة وليس علينا فى الحقوق مُعوَّل
فإن نحن لم نملك دفاعا لحادث تُلِمّ به الأيام فالموت أجمل

على أن فضل الله لا يُطلَب بمعصيته ، والفرق شاسع بين الحلال والحرام ..

وصحّ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : «إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة؛ لا يزن عند الله جناح بعوضة[1]، اقرؤوا إن شئتم »«فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا »[2] وذا بداهة عند فراغ العقل وخواء القلب، وهو ما عناه الشاعر بقوله:

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفى أثوابـه أسـد مِـزيـر
ويُعجبك الطَّرير ، فتبتليه ، فيُخْلف ظنَّك الرجل الطرير
فما عِظمُ الرجال لهم بفخر ولكـنْ فـخرُهم كرَمٌ وخِير

وفى أمثال الغرب «الناس يغفرون لك كل شىء إلا النجاح» وهذا تصوير لما يلقاه الرجل الناجح من إساءة وكراهية صوَّرها الشاعر أحسن تصوير عندما قال :

---

(١) رواه البخاري.
(٢) سورة الكهف: ١٠٥.

وإن الذى بينى وبين بنى أبى ... وبين بنى عمى لمختلف جدا
فإن أكلوا لحمى وَفَرْتُ لحومهم ... وإن هدموا مجدى بنيتُ لهم مجدا
وإن ضيَّعوا غَيْبى حفظت غيوبهم ... وإن هم هَوَوْا غَيىّ هويت لهم رُشدا
وإن زجروا طيرا بنَحْس تمرّ بى ... زجرت لهم طيرا تمرّ بهم سعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهمُ ... وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

وهذه جملة من محاسن الشِّيَم رأيتها فى آيات وأحاديث شتى لخصها الشاعر فى تلك الأبيات العامرة ؛ التى تصلح قواعد للتربية الراشدة ؛ وتأديب النفس ، والشاعر ـ بداهة ـ يرفض مهزلة «الكبت» كما رسمها «فرويد» ويطلب من كل ذى دين وعقل أن يضبط هواه ، ويلجم شهوته بلجام قاسٍ :

إذا أنت أعطيت الغنى ثم لم تجُد ... بفضل الغنى ألْفيتَ مالَكَ حامد
إذا أنت لم تَعْرُك بجنبك بعض ما ... يَريب من الأدنى رماك الأباعد
إذا الحِلمُ لم يغلب لك الجهلَ لم تزل ... عليك بُروقٌ جَمّةٌ ورَوَاعِد
إذا العزمُ لم يفرُج لك الشّكَّ لم تزل ... جَنيبًا كما استَتْلَى الجَنيبة قائد
وقلَّ غَناءً عنك مالٌ جمعتَه ... إذا صار ميراثا ووارثك لاحِد
إذا أنت لم تترك طعاما تحبه ... ولا مقعدا تُدعى إليه الولائد
تجلَّلْتَ عارا لا يزال يشُبُّه ... سباب الرجال نثرهم والقصائد

سيقال : إنك حبست الأدب فى ناحية ضيقة منه ؛ هى على جلالتها لا تمثل ميدانه الواسع ؛ وأغراضه المتعددة ، ونقول : ربما كان هذا الاعتراض سليمًا ؛ بيد أننا سوف نوضح معالم الأدب فى أمتنا الإسلامية .

حال أدبنا يثير الخوف

حال الآداب العربية اليوم تثير الخوف ؛ فإن النهضة التى أنعشتْها مع الثورة العرابية استخفَتْ من الأوراق والمنابر ! وشحَب الشعر الذى تورّد أيام البارودى وشوقى وحافظ وأمثالهم ، وحلّ محله غثاء يسمى الشعر المنثور !؟.

وخفَتَ أدب العقاد ، وطه حسين ، وزكى مبارك ، وأحمد أمين ، وأحمد حسن الزيات ، وحلّت محله مقالات يمكن أن تكون وسطا بين العامية والفصحى ، وبين الصياغة الرفيعة والترجمات الركيكة عن اللغات الأخرى ..

وتوقّحت اللهجات السوقيّة وتعبيرات الرعاع وآثار الغزو الثقافىّ فإذا لون من التعبير الهابط يملأ المسارح ويغلب على الناشئة ، وتكاد ملامح الشخصية العربية تزول فى أخلاطه المستغربة ...

ذلك من ناحية الشكل أو الأسلوب ، أما من ناحية الموضوع والحقائق الذاتية المأنوسة فى أدبنا الموروث ، فإن الأمر مفزع ، والجماهير المخدَّرة تشدها إلى القاع أقلام ليس فى نفثاتها فن ، ولا قيم رفيعة ؛ ولا غايات نضيرة ! وعلاقتها بالإسلام وتعاليمه مقطوعة ...

لقد نجح الاستعمار الثقافىّ فى تدويخ الأمة ، وفتح المجال لأناس يكرهون الألوهية ورسالة محمد ، بل رسالات السماء كلها ، ويهزؤون بالصلاة ، ويرحبون بالشهوات ؛ ويسوقون الجماهير إلى موت محقق ...

وأولو الألباب يحسُّون بشاعة المصير الذى تتدافع إليه أمتنا فى عصر تحرك فيه العبرانيون لبناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى ، وتحرك الصليبيون لتقليص الرقعة التى انساح فيها الإسلام على امتداد القرون ، كى يرقصوا على بقاياه الهامدة بعد قليل أو كثير من الأيام ...

إن المعركة الأدبية فى ضخامة المعركة العسكرية ، وحراس الإسلام الآن فى معركة بقاء أو فناء ...

ومن الصدق أن أقول : إن الأدب العربى فى عهود الأتراك ذوَى وكاد الشلل يأتى عليه ، فلما تحرك منذ قرن كان حراكه راشدًا ، وغرضه ماجدًا ، بيد أن الاستعمار الثقافى وضع العقبات فى طريقه ، فبعد أن كان أميرًا لشعراء يغنى فى أفراح الإسلام ويبكى فى مآسيه ، ويرثى «أدرنة» ، ويستصرخ الشعوب لمصير الإسلام بها ؛ ويرثى الخلافة الغاربة ، ويرثى عمرالمختار فى ليبيا .. و .. الخ جاء أدب آخر

يرفض هذه الموضوعات جميعًا ، ويدغدغ الغرائز ؛ ويحدو الشباب إلى دور اللهو والهوى .. !!.

وكان تنويم الأزهر ؛ أو شَغلُه بقضايا أخرى ، من بين أعمال هذا الاستعمار الثقافى اللعين ، والمرء يأخذ منه العجب وهو يرى مصارع المثل العليا ؛ ومقاتل الشريعة وحدودها ؛ واللغة الفصحى وشعرها ونثرها ، ثم يرى الجماهير هائمة على وجوهها فى معركة الخبز هنا ؛ أو فى ساحات العبث هناك ..

من خمسين سنة شاهدت معركة بين الأدب اللاتينى والأدب السكسونى ، بين طه حسين والعقاد ، أهناك ذكر لأدبنا العربى من مصادره الإنسانية الزاكية ، حتى فى جاهليته ؟

إن العقاد رحمه الله ثاب إلى قومه ودينه وتراثه ، وكان له نتاج طيب ، ووقف شامخًا أمام العلمانية والإلحاد والاستبداد .. أما الدكتور طه فقد كان معروفًا بأن اللحن لا يجد طريقًا إلى لسانه ، وقد خدم العربية المجردة حينًا من الدهر ، ثم غلبته موجة الغرب الصليبى ، فبعثر الشرور فى معاهد شتى ، ولم يعد إلى رشده إلا مع الموت !!.

واليوم أبحث فى ميدان الأدب الدينى عن أمثال لمحمد فريد وجدى وعبد الوهاب عزام ومن قبلهما محمد رشيد رضا فلا أجد ..

وأبحث فى الميدان السياسى عن أمثال لعبد الرحمن الكواكبى ، وعبد العزيز جاويش فلا أجد ، وأبحث فى ميدان الشعر عن أمثال لحافظ والجارم ومحرم ومطران وبدوى الجبل فلا أجد ..

توجد أقلام مريضة تخدم العلمانية والخنوثة والضعف والشرود ، صلتها بالتراث العربى كصلة اسكندر ديماس أو آرثر كونان دويل ..

إن اللغة العربية من أقدم لغات العالم ؛ وأغناها بالألفاظ والمعانى ؛ وأقدرها على استيعاب الصور الجمالية تعبيرًا وتحبيرًا ..

وبعد نزول القرآن الكريم بهذه اللغة أصبحت هى الصلة بين الأرض والسماء ،

وانفردت بأنها تضمنت عناصر الوحى الإلهى ؛ من الأزل إلى الأبد ، واستحقت بذلك خلودًا لا يُعرف للغة أخرى ؛ فى القارات الخمس ؛ قد تكون سبقت إلى وصف آلة ، أو تشخيص علّة ... ولكنها لم ترتفع أبدًا إلى تلقّى كلمات الله ، ووصايا إلى عباده ..

والأدب العربى بعد نزول القرآن قد يعتكر مجراه بلوثة شاعر أحمق أو أديب ماجن ، ولكنه لن يكون أدب فسوق وعوج ، ولن يكون حاديا للبشرية إلى العار والنار ...

إن صياغة القرآن الكريم لأجيال المسلمين حددت أهدافهم وصانتها وزكتها ، وقد عاب البعض على الشعر العربى أن يكثر فيه المديح ، غير أنك تعرف قيمة هذا النقد عندما تقرأ بيت أبى تمام :

ولولا خلال سنها الشعر ما درى بغاة العلا من أين تؤتى المكارم

فى تَصدِّى سيف الدولة للصليبية الرومانية ؛ وشجاعته فى قتال القياصرة يقول المتنبى :

وقفتَ وما في الموت شك لواقف كأنك فى جَفن الردى وهو نائم
ولستَ مليكا هازما لنظيره ولكنه الإسلام للشرك هازم

وفى اللغة العربية وأدبها وخلودها وضرورة امتداد سلطانها وتوطيد أركانها يقول الأستاذ أحمد موسى سالم ـ أطال الله بقاءه ـ :

إن نزول القرآن الكريم كفل للغة العربية جملة من النتائج وضحت رسالتها ، وحددت معالمها .

أولها : أن العرب جميعًا تشبثوا باللغة الفصحى لأنها لغة الوحى والعقيدة ...

وثانيها : أن اللهجات العامية اقتصرت على حيز ضيق جدًا من ممارسة الحديث الخاص بين الأفراد مع اتساع مجالات استخدام الفصحى القرآنية ... .

ثالثها : أن مرور الزمن ؛ وتتابع الأجيال لم يكن له من تأثير على بقاء اللغة العربية الفصحى بل لقد زاد من تفاعلها مع القرآن الكريم فبقيت لغة الأمة العربية الخالدة بخلود القرآن .

رابعها : أن نطاق اللغة العربية قد اتسع بحيث امتد إلى كل المسلمين فى أنحاء العالم ، فهم يقرؤون القرآن بالعربية ، بحروفه ، ويتخذون طريقة كتابته وسيلة لتسجيل لغتهم ، وهذا فى حد ذاته نصر حققه القرآن للعربية ، على مستوى عالمى ، ونعمة أنعمها الله فى نفس الوقت بالإسلام ولغته على تلك الشعوب .

خامسها : وهذا هو الأهم ـ كانت آية القرآن اللغوية إعلانًا عن صلاحية اللغة العربية علميًّا وإنسانيًّا لحمل وترشيد مفاهيم الحضارة ، والتعبير عنها ، مهما يكن مستواها ، لأن اللغة التى تتسع للقرآن وآياته بهذا الاقتدار البالغ ، لابد أن تكون أقدر على التعبير عن أى مستوى من مستويات تقدم الإنسان عبر كل العصور .

ونحن لا نبتئس ولا نيأس لما أحاط بلغتنا العربية من مؤامرات مبعثها الحقد القديم ؛ والضلال القديم ، ونعتقد أن صباحًا عريضًا سيعقب هذا الليل .

إن الرحمن هو الذى علم القرآن ، وهو الذى يتولى حفظه ! وستبقى اللغة التى نزل بها خالدة بخلوده .

ونرجو أن تكون سبقت لنا الحسنى باختيار الأقدار لنا محامين عن لسان الوحى ، ومحيين للتعاليم القرآنية كلها ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .